الصيدلة [1]

عند قدماء المصريين

إن لفظ (الكيميا) مشتق من أداة التعريف (ال) وهي عربية ولفظ (كيميا) وهو اسم مصر القديم ومعناه الأرض السوداء . فاسم كيميا اذا عرّب أصبح (علم مصر) وهو في ذاته شهادة بمكانة مصر الفرعونية من هذه الوجهة العلمية . ويكتب هذا الاسم بالهيروغليفية بهيئة كومة من الفحم النباتي . ولما كان استعمال النار هو أساس الكيميا وابتكار الوقود دعامة الصناعات الكيماوية كان اسم مصر (كي) برهاناً قويّاً على أن واضعها هو مبتكر النار ومكتشف الوقود . ولا يخفى ان الانسان في مبدئه كان يجهل النار الاّ اذا رآها عرضاً عن طريق الطبيعة كالصواعق وغيرها كما كان يجهل تماماً طريقة إحداث النار عند الطلب وإبقاءها مشتعلة المدة اللازمة أو بعبارة أخرى إخضاع النار لمشيئته .

ونسب علم الصيدلة الى المعبود (تحوت) مبتكر العلوم . وهذا المعبود يقابله (هرمس) عند اليونان ، لذلك سمي علم الصيدلة بعدئذٍ العلم الهرمسي (Hermetic art) . وكان هرمس خاتم تختم به زجاجات العقاقير . والى هذا الخاتم يرجع التعبير الكيماوي المعروف بعبارة (مختوم بالخاتم الهرمسي) أو (Hermetically sealed) .

وعلم الصيدلة متصل اتصالاً وثيقاً بالطب ، تقدم بتقدمه ، وانحطّ بانحطاطه ، لذا يجدر بنا أن نذكر طرفاً من تاريخ الطب من هذه الناحية فاذكر لحضراتكم أن قدماء المصريين اعتادوا الاعتناء بصحتهم . فذكر (هيرودوت) ان المصريين مارسوا علم الطب بمهارة فائقة . وكان لا يسمح لأحدهم أن يمارس فرعاً ويختص فيه . بل كان الواجب دراسة الطب كله أولاً في مدة معينة ، ثم الاختصاص في بعض فروعه . لذلك قال المؤرخ المذكور إن أطباء المصريين كان بعضهم كحالين وبعضهم اخصائيين في أمراض النساء ، والبعض الآخر في أمراض الاسنان أو

(١) ملخص محاضرة حضرة صاحب العزة الدكتور حسن بك كامل مدير قسم وقاية الطفل بوزارة الصحة ألقيت في جمعية الصيدلة المصرية

الامراض الباطنية — وهكذا . وكانوا يتعاطون المرتبات من مالية الحكومة . وخوفاً من إستعمال الأطباء لبعض العقاقير على قبيل الاختبار في المرضى وضعت الحكومة قانوناً حازماً يعاقب كل من يسيء استعمال هذه العقاقير . وكل انسان يموت ضحية هذه التجارب يعتبر موته جناية تستحق العقاب . أما اذا وصف الطبيب دواءه حسب الأصول الطبية المقررة ولم ينجح سوّغ له الاتيان بما يراه نافعاً من التجارب لشفاء المريض . وكان يراعي الطبيب في علاجه ما كان يستعمله السلف وتثبت فائدته .

ومع أن الاطباء كانوا يتناولون مرتّباتهم من الحكومة ، فكان يسمح لهم بأخذ أجورهم من المرضى ، إلاّ إذا وُجد الطبيب ببلاد أجنبية ، فيجب عليه في هذه الحالة أن لا يتناول أجراً من أي مريض كان .

وذكر (هيرودوت) في كتابه (ص ١١ — ٧٧) أن أهالي القطر المصري كانت لهم شهرة ذائعة لاعتدال صحتهم واهتمامهم بها . فكانوا يتعاطون علاجاً خاصًّا مدة ثلاثة أيام في كل شهر فانًّا منهم أن الامراض ناشئة عن ضعف القوة الهضمية وكانوا يهتمون بضبط اوقات الغذاء وتعاطي المسهلات .

ووصف هوميروس في كتابه المسمى Odessey (ص ٢٢٩) الأدوية الكثيرة التي أعطتها Polydemnia زوجة Thones الى Helen أثناء وجوده بالقطر المصري فقال « ان مصر بلدة خصبة تخرج أرضها عقاقير كثيرة لا تحصى . منها النافع ومنها الضار . وبها أطباء يمتازون عن غيرهم بمعارفهم الواسعة .

ونسب المصريون الطب وتدوينه الى (اخوتب) وقالوا انه أول واضع له وإليه يرجع الفضل الأول في علاج الأمراض بالوصفات العديدة الناجمة . وعاش اخوتب هذا في عهد الملك (زوسر) (حوالي ٢٩٥٠ ق . م) واشتهر وزيره الأكبر بالطب والصيدلة والمهارة والذكاء حتى خلد اسمه في تاريخ مصر القديم . فذكره الكتّاب في كتبهم بأنه رجل عظيم ذو معرفة وخبرة .

واعتقد القوم ان بعض الأدوية لا تصلح إلاّ اذا حُضّرت ليلاً وفي ضوء القمر أو في فصل مخصوص من السنة كالصيف مثلاً . وذكروا أن بعض الأدوية يؤثر في الصيف

تأثيره في الشتاء . وان أمهر الاطباء عندهم من عرف تأثير السحر والدواء وميّز بينهما بين حيث الفائدة والعلاج . والآن أذكر أهم المراجع الفرعونية الخاصة بالصيدلة وعلاقتها بالطب:

(١) قرطاس (ايبرس) هو أضخم هذه الكتب عثر عليه بمقبرة بالأقصر مع قرطاس (ادوين سميث) عام ١٨٦٢ م اشتراه الأثري الالماني (ايبرس) . وهو الآن محفوظ بمتحف (ليبزج) بألمانيا وفي حالة جيدة جداً . وعلى ظهر هذا القرطاس دونت تواريخ هامة ساعدتنا كثيراً على معرفة عدة أزمنة مجهولة . والمعروف أن هذا القرطاس دوّن حوالي سنة ١٥٠٠ ق . م لكن لغته واعتبارات أخرى فيه تدل على انه منسوخ من كتب أخرى أقدم منه بقرون عديدة . خذ مثلاً ما ورد في إحدى عباراته من أنها مأخوذة من وصفة في الأسرة الأولى (٣٤٠٠ ق . م) وفي أخرى أنها من زمن إحدى ملكات الأسرة السادسة (٢٢٥٠ و ٢٤٧٥ ق . م) ويحوي هذا القرطاس وصفات عديدة لأمراض متباينة وكل وصفة مكوّنة من عدّة جواهر ، أمام كل جوهر مقداره اللازم وآخر كل وصفة طريقة تعاطي الدواء . ولا يسع الباحث في هذا القرطاس إلاّ أن يستنتج انه مجموعة كتب صغيرة بعضها طبي والبعض الآخر روحاني . وكتابة القرطاس في شكل أعمدة أشبه بجرائدنا اليومية ويبلغ عددها المائة والعشرة عموداً وعدد وصفاته ٨٧٧ وصفة .

(٢) قرطاس هيرست Hurst اكتشف عام ١٨٠٩ بدير البلاجي بالصعيد . وفي سنة ١٩٠١ اشتراه الدكتور ريزنر Reisner الأثري وأهداه الى جامعة كاليفورنيا بأمريكا . وقد اعتنى أوائل هذا الكتاب الثلث . أما الباقي فهي حالة جيدة . وهو يحوي ١٥ عموداً في النصوص الطبية . ويرجع تاريخه الى حوالي ١٥٠٠ ق م . وفيه شبه لقرطاس (ايبرس السابق) حتى ان بعض عباراته تكاد تكون مطابقة لبعض عبارات بقرطاس (ايبرس) ويبلغ عدد وصفاته ٢٦٠ وصفة .

(٣) قرطاس (برلين) الطبي ، أحدث عهداً من القرطاسين السابقين . لكنه يحوي عبارات قديمة العهد . وعباراته مكتوبة بإهمال ومحشوّة بأخطاء وتحوي ٢٤٠ وصفة بما في ذلك العبارة المذكورة على ظهره الخاصة بمعرفة العقم ونوع الجنين في الرحم . وكان العثور عليه في القرن التاسع عشر بسقارة (بسالاكا) في مقبرة يرجع تاريخها الى عهد

رمسيس الثاني (١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق . م) .

(٤) قرطاس كاهون الطبي ، اكتشفه (سير فلندرز وذيتري) سنة ١٨٨٩ أثناء القيام بالحفر في جهة الفيوم . وهو أقدم من القراطيس المذكورة قبلاً . يرجع تاريخه الى عهد الأسرة الثانية عشر (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق م) وهو ممزق ، إلاّ أن نصوصه واضحة وهي خاصة بفن الولادة وأمراض النساء ويحوي ٣٤ وصفة .

(٥) قرطاس (لندن) الطبي ، أي لبه روحاني يرجع الى زمن الأسرة الثامنة عشرة (١٣٥٠ — ١٢٠٠ ق . م) ولو ان عباراته أقدم بكثير من ذلك وهو محفوظ في دار تحف لندن تحت رقم ١٠٠٥٩

(٦) و (٧) قرطاسا داري تحف (ليدن) و (تورين) هما قرطاسان قديمان روحانيان يحويان قليلاً من الوصفات الطبية .

(٨) قرطاس (أدوين سمث) عثر عليه بمقبرة بالأقصر عام ١٨٦٢ وهناك اشتراه المستر (أدوين سمث) وقد اعتراه بعض التلف وفقدت بعض نصوصه . لكنه اهتدى اليها بعد ذلك واشتراها على دفعتين . ثم توفي وانتقل القرطاس بعد ذلك الى ابنته (ليونورا سمث) التي أهدته الى الجمعية التاريخية (بنيويورك) ويبلغ طوله ٤٫٦٨ متراً . انما يظن انه كان يبلغ حوالي خمسة أمتار . ويتراوح عرضه بين ٣٢٫٥ سم و ٣٣ ، وهو يقرب من عرض القراطيس القديمة التي يرجع تاريخها الى ما بين المملكة الوسطى (٢١٠٠ — ١٧٠٠ ق.م) ، عهد الامبراطورية (١٥٥٥ — ٧١٢ ق . م) وفي هذا القرطاس ١٢ لوحة متعاقبة وتحوي ٢٢ عموداً من النصوص المصرية القديمة منها ١٧ رأسية و ١٥ أفقية . ويظن أن هذه النصوص المصرية القديمة كتبها عدة أشخاص لاختلاف واضح في الخط .

و بمقارنة الخطوط المصرية القديمة التي بهذا القرطاس بالخطوط المستعملة أيام ملوك الرعاة لوحظ أن بينها مشابهة كبيرة . وعليه فلا يبعد أن تاريخ هذا القرطاس يرجع الى القرن السابع عشر قبل الميلاد . ويلاحظ أيضاً أن كاتب هذا القرطاس كان يجيد الخط لكنه لم يكن ضليعاً . وانه ترك بعض الأحرف بدون ذكرها . وراجع كتابته وصححها بالمداد الأحمر فوق الأسود وبالمداد الأسود فوق الأحمر . وتشتمل السبعة عشر عموداً الرأسية على شرح

٨٤ حالة مرضية . وهذه الحالات تبدأ بالرأس وتنتهي بالقدمين وهي موصوفة وصفاً دقيقاً .

الى هنا انتهى ملخص الكتب الطبية في مراجع الصيدلة المصرية القديمة . بقي علينا أن نذكر ان كل معبد كانت تلحق به حديقة خاصة للنباتات الطبية يستعملها الأطباء من الكهنة لأن الطب والدين كانا متصلين وقتئذٍ اتصالاً وثيقاً . ويمكننا أن نستدل على مدى تقدم علم الصيدلة في تلك العصور بالرجوع الى طريقة تحضير العقاقير وخلافها .

والمعروف انه كان يلحق بكل معبد معمل خاص أشبه بمعاملنا الكيمائية تجهز فيه الروائح والعطور اللازمة للطقوس الدينية وأيضاً العقاقير الخاصة بصيدلة المعبد والكتب الطبية المذكورة خاصة بالتذاكر العلاجية . كما ان جدران المعابد كثيراً ما نقشت عليها الوصفات الطبية . ويحوي معمل المعبد جميع الأدوات اللازمة لتحضير العقاقير . نشاهد فيها طريقة سحق العقاقير في (الهاون) بواسطة شخص تارةً وبواسطة شخصين تارةً أخرى ثم تصفية هذه السحيق بما يشبه المنخل .

وكانت الاسكندرية في عهد البطالمة تحوي مكتبة فيها كتب قيمة في الصيدلة . ذكر زوسيموس (ص ١٨) — الذي عاش حوالي ٣٠٠ بعد الميلاد — ان هذه المكتبة المسماة Serapion كانت تحوي آلافاً من كتب الصيدلة. والمعروف ان معبدي ادفو وجزيرة فيلة كانا يحويان مكتبتين قيمتين أيضاً .

ومنذ عهد الأسرة الثالثة (٢٩٨٠ — ٢٩٠٠ ق . م .) كانت المكاتب تسمى « دور الكتب » وكانت تحوي قراطيس بردية تبحث في الطب والجراحة والصيدلة وغيرها .

ولاشتمال الطب المصري القديم على كثير من المكتبات المختلفة تحتم على الصيدلي المصري معرفة علم النبات وخواصه ليدرجه في الدواء اللازم . خذ مثلاً ما ورد بالوصفة رقم ٢٨٤ بقرطاس ايبرس تعريبه ان النبات (سنوت) يمتد على بطنه مثل القناه وله زهر كالقرطم وأوراقه تشبه الخشب الأبيض . وذكروا أيضاً منافع النبات في أحوال مخصوصة . مثال ذلك : ما ورد بقرطاس (ايبرس) في الوصفة رقم ٢٥١ عن شجرة الخروع . وتعريبه : منافع شجر الخروع حسبما ورد في الكتب القديمة تأليف خيار الناس . اذا دقت أصولها في الماء ووضعت على الرأس التأم في حالاً . واذا خلط قليلاً من بزرها مع البيرة أسهل الانسان من بطنه

وأدوية المرض في جسمه . وينفع بزرها لنمو شعر المرأة وذلك بسحقه مع زيت أرضي تدهن به المرأة رأسها . ويستخرج من بذره زيت يدهن به الذي به صديد وعفونة كريهة فيزيله من الأعضاء كأنه لم يكن . واستعملوا للاطفال العلاج المناسب لهم في النوع والمقدار . مثال ذلك : ما ورد بقرطاس ايبرس تحت رقم ٢٧٢ لاصلاح البول عند الطفل والبالغ : « تخلط شوائي العاب على البيرة (وهي كما نعلم الطريقة المبدئية لاستخراج الصبغة الطبية للنبات (tincture) ثم يضاف اليها مقدار من الماء ويعطى للرجل أو المرأة لشربه . ويعطى للطفل مقدار هن Hin واحد (وهو يعادل نصف لتر تقريباً) . ورد في قرطاس (ايبرس) تحت رقم ٢٧٣ ما تعريبه : علاج البول الصديدي عند الطفل — مادة يقال لها (خنت) تسحق وتعمل حبوباً ويعطى للطفل ان كان مفطوماً . اما اذا كان في القماط (أي رضيعاً) فيخلط بلبن المرضعة ويعطى له مدة أربعة أيام .

وكان الاطباء يضمدون الجرح والدمامات والمراهم والحبوب والقطرات والمبخ والبخور والحقن الشرجية الخ . وكانوا يستحضرون منقوع النبات ومغلياته اما في النبيذ أو الجعة العذبة أو المياه المعدنية . وذكروا الوصفات الكثيرة لتجميل الجسم وإطالة شعور السيدات وتحسين بشرة الوجه وتجديد الجلد وتزكية رائحة الفم وازالة الرائحة الكريهة بين الأصابع صيغاً وغير ذلك .

العقاقير الحيوانية — ان البحث في هذا الموضوع ليس بالسهل . ولا نزال نجهل (مضمون) مدلول معظم أسماء العقاقير . نعم ان هناك مئات من الجواهر ذات الأصل الحيواني والنباتي والمعدني مذكورة ضمن الوصفات لكننا لا نزال نجهل معظم هذه الحيوانات ، وكل ما يمكننا معرفته هو الجزء الخاص من الحيوان مثل شحمه أو لحمه أو دمه . اما الحيوانات المعروفة التي استعملت أجزاؤها في التطبيب فهي الثور والماعز والغزال والوعل والخنزير وفرس البحر والأسد والنمر والوطواط والأوز والضفدع والسلحفاة وأنواع السمك وغير ذلك . أما النباتات التي كانت تدخل ضمن الوصفات فلا نزال نجهل أغلبها . وكان القوم يستعملون كل النباتات أو ورقه أو بذره أو فاكهته أو عصيره أو جذوره أو راتينجه . وقد كان استعمال الأجزاء الحيوانية معتبراً في القرن التاسع عشر مثال الجهل . أما الآن فنعلم ان كثيراً من

الأمراض ناجم عن قصور في وظيفة غدد الجسم يعالج بتعاطي ما يقابله من غدد الحيوان. فرض المكسيديما الناجم عن فشل الغدة الدرقية يعالج بتعاطي هذه الغدة في حيوان كالثور والأنيميا الخبيثة التي هي نتيجة قصور في وظيفة الكبد تعالج الآن بتعاطي هذا العضو نيئاً. وتظهر أيضاً أن تعاطي المعدة كافٍ لشفاء هذا الداء. وهناك أمراض أخرى ناجمة من قلة الفيتامين كالكساح والبلاجرا تعالج بتعاطي الفيتامين المضاد الذي يوجد في كبد السمك والخمير (الحبوب والبقول). كل هذا أيها السادة يجعلنا نتساءل عما اذا كان أجدادنا عالمين بخواص هذه الأعضاء الحيوانية وأنواع النباتات حتى أكثروا من وصفها لأمراضهم كما نصفها نحن الآن. وما أوردناه عن صعوبة معرفة مدلول أسماء الحيوانات والنباتات ينطبق على الجواهر المعدنية العديدة المذكورة ضمن الوصفات الطبية.

والسائل الذي كانت تتعاطى فيه العقاقير بهيئة مزيج هو عادة الماء أو اللبن أو الشهد أو النبيذ أو البيرة. أما الدهان والمروخ فأغلب وضعاتهما تحوي الشهد أو الصمغ أو الراتينج أو شحم الحيوان. وكانوا يتعاطون العقاقير جافة بشكل مسحوق وأحياناً يقصرونها أو يغلونها أو بين بين. وكثيراً ما وصف القوم الحبوب والأقراص المستطبة والاقماع، ثم يذكرون في آخر كل وصفة طريقة الاستعمال كما نفعل الآن تماماً. فكانوا يقولون مثلاً: يؤخذ هذا الدواء ليلاً ونهاراً، قبل الغذاء أو بعده. وأمام كل جوهر مقداره اللازم مما يشير الى عنايتهم بعلم الأقرباذين.

والى قدماء المصريين يرجع الفضل في ابتكار عدة عقاقير لا تزال تستعمل للآن، منها النشادر. وكانوا يستخرجونه بسحق وغلي أو حرق قرون الحيوان أو حوافره أو عظامه، وذلك بشكل بخور أو علاج موضعي. وهذه الطرق المبدئية في استخراج النشادر واستعماله هي الأصل في بقاء هذا الدواء في الطب اليوناني والسوري والعربي والأوربي في القرون الوسطى. وكان يطلق عليه في القرون الوسطى أسم (Hartshorn) ومعناه قرن الطبي. ومحلول النشادر المائي لا يزال يعرف في وقتنا هذا بالاسم Spirits of Hartshorn-liq. ammoniae

ومن أهم العقاقير النباتية قشر الرمان. وهذا النبات قديم العهد في مصر. وكثيراً ما عثر على فاكهته بالمقابر الفرعونية. ووردت بقرطاس (ايبرس) وصفته لطرد الديدان في الامعاء تتلخص في سحق قشر الرمان ومزج ذلك بالماء ثم تعاطيه (ايبرس لوحة ١٥ سطر ١٨). واشتهرت هذه الوصفة عدة قرون في بلاد متنوعة كأشور واليونان والعرب. وهناك وصفات مصرية قديمة تحوي الشبت (Dill) والكزبرة (Coriander) والكمون (Cumin) والكراوية (Caraway) والحلبة (Fenugreek). وكان الآشريون يقولون باستعمال البيروح أو

المندراجورا (Podophyllum) في الطب الفرعوني لكن ذلك لم يثبت للآن . نعم أنه عثر على فاكهة هذا النبات بمقبرة (توت عنخ آمون) لكن ذلك كان بقصد الزينة فقط . وكان المصريون يتعاطون بزور الخروع للامساك والضعف العام والصداع . وأهم العقاقير المعدنية التي استعملها المصريون في الطب هي السلقون والشبة وملح الطعام وكاربونات الصودا .

وهناك قرطاس بردي قبطي يقال له قرطاس المشليخ (٨٠٠ — ٩٠٠ب.م) يحوي حوالي ٢٣٧ وصفة منها الوصفة الآتية — لالتهاب الأذن الحاد — أفيون ، دهن عجل ، لبن ، أمزجها معاً ثم دفيء المزيج وضعه في الأذن فان الألم يسكن حالاً لكن حذار أن تصف هذا الدواء قبل أن تأخذ أجرك . وأن السر في ذلك راجع إلى الأفيون المسكن للألم وإن زوال هذا الألم وراحة المريض قد يقنعانه في عدم الحاجة إلى الطبيب فيبخل عليه بأتعابه . وهكذا بدأ الشعر بالنغم الذي كان يقع على زملائنا الأقدمين إذا ما صادف علاجهم نتيجة ناجعة .

واستعمل القطران في التحنيط في العصر اليوناني والروماني . وكان يؤتى به من البحر الميت . وحدث بعد ذلك أن زاد اعتقاد القوم في فائدة القطران في حفظ الجثث فعلت منزلته من الوجهة الدينية . ثم نسي القوم الفائدة الأولى للقطران ونسبوا مفعوله الى المومياات نفسها بصرف النظر عن القطران . ولا يخفى أن القطران مطهر للجهاز التنفسي . ولا يزال يعطى في الالتهابات الشعبية والرئوية والانتنية كما تعالج به عدة أمراض جلدية وغيرها فحمل في القرون الوسطى في اوربا حتى القرن الثاني عشر ان كانت المومياات المصرية تعدر الى أوربا كعقاقير تصحن وتباع في الصيدليات وتتاجر . ثم تراءى للقوم أنه اذا كانت فائدة جثث المصريين عظيمة بهذا الشكل فلم لا يستفاد بجثث المجرمين والمنتحرين بأوربا للغرض نفسه وفي ذلك اقتصاد وفي ذلك سهولة . وقد كان ذلك فأطلق القوم اسم (مومياء) بعد ذلك على اللحوم المستعملة دواء . وهكذا استمر هذا النوع من التجارة حتى القرن الثاني عشر . وكانت عبارة (مومياء) من مواد أقربازين تلك العصور .

واتضح لنا أن جانباً كبيراً من معلومات ديوسقوريدس (٥٠ ب.م) وجالينوس (١٣٠ — ٢٠٠ ق.م) وبليني (٢٣ — ٧٩ ق.م.) وغيرهم مأخوذة بطريقة مباشرة من قراطيس المصرية القديمة . وان هذه المعلومات انتقت بواسطة هؤلاء الفاحل الى أطباء القرون الوسطى فصارت أهم أركان الطب النشبي (Herbals) وتعاليم الطب القيمة في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وقد استمر علم الصيدلة المصرية محافظاً على جوهره بعد دخول المسيحية مصر . وفي العهد البوناني أخذت الصيدلة الاغريقية تمتزج تدريجيًّا بالصيدلة الفرعونية .

الدكتور حسن كمال